

تأملات تراثية

في التعابير الجمالية لجسد المرأة

أ.د. علي اسعد وطفة

يتأصل الجمال في طبيعة الإنسان فالله قد خلق الانسان على صورته وهو جميل يحب الجمال. ولذا فالإنسان ميال بطبعه الى عشق الجمال نزاع الى استجوابه ومناشدته حيثما وجد في الطبيعة وفي الكلمة وفي الأشياء وفي الإنسان نفسه .

وإذا كان الإنسان جميلا فان الطبيعة خصت المرأة بالجمال الذي يندر مثيله فى الكون فجعلت منها آية من آياتها وسرا من اسرارها فإذ هى جمال يتفتق بالجمال ويفيض بالسحر ويعبق بالجادبية وينضب بالمعاني الجميلة .

منذ بدء التكوين والرجل يقف مسحورا أمام جمال المرأة وفتنتها حيث وجد فى سحرها وجمالها ينبوع الهامه فاذ به يستوحى جمالها فى بناء جمال الاشياء التى تجسدت فى الادب والفن والروائع والاحداث الجسام .

كان جمال جسد المرأة يلعب وما زال دور اساسيا فى ايقاظ الرجل على معاني الجمال وصوره جميع الحضارات الانسانية الاولى ومنه انتقل الفلاسفة والمفكرون والفنانون الى غيره من مظاهر الجمال فى الطبيعة والنفوس والمنازل والابنية (عبد اللطيف شراره: 72). فالجمال والحب توأمان لا يقوم احدهما من غير الاخر وفى ذلك اشارة الى ما يفعله الجمال فى نفوس البشر والى مدى تأثيره فى قلوبهم. وها هو افلاطون نفسه لا يميز فى كتابه " المائدة " بين الحب والجمال إذ يقول " إن الحب هو التمتع بالجمال لان فكرة الجمال هى الحقيقة السامية (أوسفلد سفارتس: علم نفس الجنس، ص. 145).

وإذا كان الحب هو اساس كل تقدم انساني بما يوحيه من اندفاعات وتضحيات فإن الجمال هو معين الحب وملهمه. فعالم الحب هو عالم النفس البشرية في جملته ومن استطاع أن يتذوق جمالياته [...] كان حرياً به أن يدرك اسرار النفس الانساني (شرارة: ص.11).

لقد قدر لشخصيات التاريخ العظيمة من شعراء وادباء وفنانين أن تدرك لمحات الجمال وأن تستشعر عظمتهم " فامتازوا بقدرتهم العجيبة على الحب وتفردوا بذلك اللهب الداخلي الذي جعلهم لا يملون الجهد من أجل غيرهم ومن اجل العطاء والابداع " (شرارة ص. 16).

وكان لجمال المرأة لدى كل شعب طراز يصفه شعراؤه ويتغنى به عشاقه ويرسمه مصوره وينحت له التماثيل مثالوه وتجهد النساء في تحقيقه (شرارة ص. 74). ففي اليونان القديمة كان مقياس الجمال الانثوي عند اليونان يتمثل في المرأة الممتلئة قليلا كما يلاحظ في التماثيل والرسوم اليونانية (خماس: ص.29).

كان احساس العاشق بجمال عشيقته في الجاهلية يتحول على يد الحب الى ضرب من العبادة [...] وكان العرب الجاهليون يرون في جمال المرأة محور احاديثهم واداة الوحي الكبرى لشعرائهم (شرارة).

لقد وجد ديون Dion سنة 1977 أن جاذبية الوجه تعد نقطة الارتكاز الاولى للجاذبية، وأنها تساعد صاحبها أو المتعامل معه على إقامة علاقات اجتماعية اكثر استدامة ووفاقا، كما أن لذلك أثرا بينا في توجيه السلوك نحو مسالك لا تتسم بالضعف والعدوانية .

"وتبين الدراسات الجمالية الجارية بشكل عام أن الافراد الاكثر جاذبية من ناحية الشكل يملكون في نظر من يتعاملون معهم خصائص ايجابية، بعكس الذين لا يملكون هذه الجاذبية فينظر اليهم على أنهم يحملون خصائص سلبية " (الخشت: ص 72).

وتتعدد وجهات النظر في تحديد شواخص الجمال عند المرأة فهناك من ينظر الى الجمال الانثوي في رشاقة الجسم وانسيابه، بينما يركز آخرون على تناسق الوجه وبهائه، في حين يجمع البعض في نظريتهم بين اعتبار رشاقة الجسد وبهاء الوجه. وثمة رجال يفضلونها ممتلئة، وآخرون يرغبون في الرفيعة، وهناك من تعجبهم معتدلات الجسم، كما أن بعض الرجال يتوقون الى السمراء، وآخرون الى الشقراء، وطائفة يجذبون البيضاء .

ف للجمال الجسدي ألوان مختلفة وأنماط متعددة، وتؤكد احدث الدراسات التي وقعت عليها أيدينا تنوعا كبيرا في نظرة الرجال الى الجوانب الجمالية للجسد الانثوي .

ويتجسد جمال المرأة الجاهلي في القصيدة اليتيمة التي تمثل إحدى اللوحات الرائعة لجمال المرأة في منظور الثقافة الجاهلية وهي من اقدم اللوحات الفنية إذ لم تكن اقدمها على الاطلاق. تقول القصيدة:

بيضاء قد لبس الاديم اديم	الحسن فهو لجلدها جلد
ويزين فوديتها إذ حسرت	ضافي الغدائر فاحم جعد
فالوجه مثل الصبح مبيض	والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا	والضد يظهر حسنه الضد
وجبينها صلت وحاجبها	شخط المخط ازج ممتد
فكأنها وسنى إذ نظرت	أو مدنف لما يفق بعد
بفتور عين ما بها رمد	وبها تداوى الاعين الرمد
وتريك عرنينا به شمم	أقنى وخذ لونه الورد
وتجيل مسواك الأراك على	رتل كأن رضابه الشهد
والجيد منها جيد جويزة	تعطو إذا ما طالها المرد
وأمتد من اعضائها قصب	فعم تلتته مرافق درد
والمعصمان فما يرى لهما	من نعمة وبضاضة زند
ولها بنان لو اردت له	عقدا بكفك أمكن العقد

والنحر ماء الورد إذ تبدو	كأنها سقيت ترائبها
كافورتين علاهما ند	وبصدرها حقان خلتهما
بيض الرياط يصونه الملد	والبطن مطوي كما طويت
فإذا تنوء يكاد يتقد	وبخصرها هيف يزينه
كفل بجانب خصرها نهد	والتفت فخذها وفوقهما
من ثقله وقعوها فرد	فتيامها مثنى اذ نهضت
عبلت فطوق الحجل منسد	والساق خرعبة منعمة
حجم وليس لرأسه حد	والكعب ادغم لا يبين له
والينتا فتكامل العقد	ومشت على قدمين خصرتا
في خلقها، فقوامها قصد	ما عابها طول ولا قصر

يقول محمد عثمان الخشت: " احتل جمال المرأة مكانة خاصة في الأدب العربي فطالما تحدث الشعراء والأدباء عن مفاتن المرأة وبهائها " (الخشت: ص. 76).

لقد ربط العرب منذ وقت مبكر بين الجوانب الجمالية الجسدية في الانثى ومجالات الابداع في الادب، وقد بلغ ذلك التعبير حدا من الروعة لا يقل عن التعبير الابداعي لحضارات أخرى لجأت الى اساليب متنوعة كالنحت والسيراميك في الحضارة اليونانية والرومانية، والرسم في الحضارة الرينساس والعصر الحديث. فضلا عن أنها تتعادل في دقتها أحدث الأبحاث المعاصرة في مقاييس الجمال الانثوي (الخشت: ص. 76).

لقد ابداع العرب واي ابداع في وصف جمال العيون اذ غالبا ما ينجذب شعراء العرب الى حوراء العينين: (شدة البياض والسواد، ويقال الحور اسوداد المقللة كلها كعيون المهيا (البقر الوحشي). وفي ذلك قال جرير :

"إن العيون التي في طرفها حور _____ قتلنا ثم لم يحيين قتلانا"

وهناك كثرة كاسرة من النصوص الأدبية النثرية الرائعة التي تصف جمال المرأة ومنها ما قاله الأخوان عمرو وربيعة عندما سألهما ابوهما عن صفات أحب النساء اليهما فقال عمرو : الهركولة.. اللفاء(1).. الممكورة(2).. الجيداء(3)... التي يشفى السقيم كلامها... ويبريء الوهيب الهامها، الفاترة الطرف (4) الفلة الكف.. العميمة الردف.

أما أخوه ربيعة فقال :

الفاتنة العينين.. والاسيلة الخدين (5)... والكاعب الشديين (6)... الرداح الوركين (7)... الشاكرة القليلة... المساعدة للحليل... الرخيمة الكلام (8).

لقد أرسل الحارث بن عمرو ملك كندة امرأة يقال لها عصام الى ابنة عوف لكي تتعرف على اوصافها لما اخبره البعض بكمالها وجمالها وعندما عادت استنطقها بالقول المأثور: ما وراءك يا عصام.

فقالت: " رأيت وجهها كالمرآة المصقولة... يزينها شعر حالك كأذنان الخيل، إن ارسلته خلته السلاسل، وان مشطته قلت: عناقيد جلاها الوابل، وحاجبين كأنهما خطا بقلم أو سودا بحمم (1)... وبينهما أنف كحد السيف الصنيع... حفت به وجنتان (2) كالارجوان (3) في بياض كالجمان(4). شق فيه فم كالخاتم، لذيذ المبتسم، فيه ثنانيا غر (بيضاء)، ذوات أشر (الأشر تباعد بين الأسنان)، تقلب فيه لسان بفصاحة وبيان، بعقل وافر وجواب حاضر، تلتقي فيه شفتان حمراوان تجلبان ريقا كالشهد اذ ذلك.. وفي رقبة بيضاء ركبت كدمية.. وعضدان ممتلئان لحما، مكتنزان شحما، وذراعان ليس فيهما عظم يمس ولا عرق يجس.. نتأ في صدرها ثديان كرمانتين يخرقان عليها ثيابا.. تحت ذلك بطن طوي كطى القباطى المدجنة (5).. كسى عكنا(6) كالقراطيسالمدرجة، تحيط بتلك العكن بسرة(7) كمدهن (8) العاج المجلو.. خلف ذلك ظهر فيه كالجندول (9) ينتهى الى خصر، لولا رحمة الله لا نبت... لها كفل (10) يقعدها اذا نهضت، وينهضها اذا قعدت كأنه دعص(11) رمل تحمله فخذان لفا كأنهما نضيد الجمان (12). تحتهما ساقان خدلتان (13)، كالبردتين وشيتا (14) بشعر أسود كأنه حلق الزرد (15).. (ويحمل ذلك قدمان كحذو اللسان; فتبارك الله كيف تطيقان حمل ما فوقهما. وما أن سمع ملك كندة هذه الاوصاف، حتى أرسل من يخطبها له من أبيها وتزوج منها (الخشت: ص82-83) .

وخلاصة القول أن الحب عند العرب كان ينبعث ويتحرك في النفس عن تأثير الحواس بجسد المرأة وإشعاعاته. وكان الجاهلي يعجب بتحركات المرأة ويلمس فيها الجمال وفي هذا يقول الشنفرى :

ويعجبني أن لا سقوط خمارها _____ إذا ما مشت، ولا بذات تليفت

كأن لها في الأرض نسيا تقصه _____ إذا ما مشت، وإن تكلمت تبتل

وهذا ما يقوله الأعشى في وصف مشيتها :

غراء فرعاء، مصقول عوارضها ----- تمشي الهويينا كما يمشي الوجي الوجل

كأن مشيتها من بيت جارتها----- مَرَّ السحابة لا ريث ولا عجل

ومن أجمل ما قيل في المرأة قول خالد صفوان في وصفه وجهه الى ابو العباس السفاح: " وحسبك من جمالها أن تكون فخمة من بعيد مليحة من قريب اعلاها قضيب واسفلها كتيب كأنها كانت في نعمة ثم اصابتها فاقة فأثر فيها الغنى وأدبها الفقر" (عن كتاب العقد الفريد: كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتها .

"وقد ظلت هذه الصفات الجسمانية في المرأة مثال اعجاب العربي وموضوع غزله واهتمامه الى يومه هذا فلم يختلف بذوقه عن الجاهلي في شيء كثير وما زال تراثه القديم في هذه الناحية يعمل عمله في نفسه عن وعي منه وغير وعي " (شرارة: ص. 78).

سئل اعرابي عن النساء وكان ذا تجربة وعلم فقال: أفضل النساء اطولهن اذ قامت، واعظمنهن إذ قعدت، وأصدقهن إذ قالت، والتي اذا غضبت حلمت، وإذا ضحكت ابتسمت، وإذا صنعت شيئاً جودت، التي تطيع زوجها وتلتزم بيتها العزيزه فى قومها الذليلة في نفسها، الودود الولود وكل امرها محمود (شراره: ص.79) .

قال عبد الملك لرجل من غطفان " صف لى أحسن النساء " قال " خذها يا أمير المؤمنين: ملساء القدمين، ردحاء الكعبين(1) مملوءة الساقين، جماء الركبتين (2) لفاء الفخذين، مقرمدة الرفغين(3)، ناعمة الاليتين، بداء الوركين، مهضومة الخصرين، ملساء المتنين، فخمة الذراعين، منيفة المأكميتين (4)، فعمة العضدين (5) فخمة الذراعين، رخصة الكفين (6) ناهدة الثديين، حمراء الخدي، كحلاء العينين، زجاء الحاجبين(7)، لمياء الشفتين (8)، بلجاء الجبين(9)، شماء العرنين (10) شنباء الثغر (11) حالكة الشعر(12)غيداء العنق (13)

غيداء العينين (14) مكسرة البطن ناتئة الركب. فقال " ويحك وأنى توجد هذه " قال " تجدها في خالص العرب أو في خالص الفرس (السناد: ص. 170 >)

قال خالد بن صفوان لأبو العباس السفاح واصفا محاسن المرأة : " إن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء والبضة البيضاء والعنيقة الادماء والدقيقة السمراء والبربرية العجزاء ولو رأيت يا أمير المؤمنين الطويلة البيضاء والصفراء والعجزاء والسمراء واللعساء، والمولدات البصريات والكوفيات ذوات اللسن العذبة، والقودود المهفهفة والاوساط المخصرة والاصداغ المزرنفة والعيون المكحلة والثدي المحققة. (شراره:ص.107).

ومن بدائع وصف الحسنات ما تسجله قصة الف ليلة وليله حيث جاء في وصف منار السنا: "صاحبة وجه مليح وقد رجيج اسيلة الخد قائمة النهدي دغعاء العينين ضخمة الساقين بيضاء الاسنان حلوة اللسان طريفة الشمائل كأنها غصن مائل بديعة الصفة حمراء الشفة بعيون كحال وشفاف رقاق على خدها الايمن شامة وعلى بطنها من تحت سرتها علامة ووجهها منير كالقمر مستديرة وخصرها نحيل وردفها ثقيل وريقها يشفى العليل كأنه الكوثر والسلسيل، وبين فخذها تخت الخلاقة، وهى بنت الملك الاكبر (عبدالله بوحدية: " الاسلام والجنس ص.196).

نظر خالد بن صفوان الى جماعة في المسجد في البصره فقال ما هذه الجماعة ؟ قالوا امرأة تدل على النساء. فأتاها فقال لها. ابغني امرأه قالت صفها لي.قال:

"اريدها بكرا كثيب، أو ثيب كبكر، حلوة من قريب فخمة من بعيد، كانت فى نعمة، فأصابتها فاقة، فمعها أدب النعمه، وذال الحاجة. فإذا اجتمعنا كنا أهل دنيا، وإذا افترقنا كنا أهل آخرة. قالت المرأة: لقد اصبتها لك. قال: وأين هى. قالت: فى الرفيق الأعلى من الجنة فاعمل لها. (محمد عثمان الخشت: ص. 87).

وإذا كان العرب قد اجادوا في وصف محاسن المرأة وأسرار جمالها فأبدعوا فى ذلك وفجروا عبقرتهم الشاعرية فان ملامح هذه الصورة الجمالية ما زالت راسخة فى العمق الوجداني للإنسان العربي. يقول بوعلی ياسين: " نلاحظ أن المفهوم الجمالى لدينا نحن العرب قد تأثر بعلاقة المرأة بالطبيعة والحضارة، فالرجل الاسمر الذي لوحته الشمس جميل مثلما هى جميلة المرأة ناصعة البياض التي لم تر الشمس وجهها. " ولا أقول أن المرأة العربية هى التي اخترعت هذا الفهم الجمالى ولكنها فى كل الاحوال تتصرف بمقتضاه " (بوعلی ياسين ص.112).

يقول نزار قباني في هذا الخصوص: " الانفعال بجمال المرأة كان صحراويا بمعنى أن أمير الشعراء شوقى لم يستطع أن يتحرر وهو في باريس واسبانيا وجارون سيبني من رنين خلاخل البدويات ووسمهن وكهلن وأوتاد خيامهن (قباني: ص.22).

بهذا يتبين لنا أن الادباء العرب القدامى وأيضا فقهاء اللغة وقد نظروا الى جمال المرأة على اسس تكاملية بين جميع اعضاء الجسد ومكوناته. وهذا يظهر وجه التشابه بينهم وبين نظرة اليونان الى الجمال الانثوي، وإن كان كل منهم يلجأ الى شكل مختلف من اشكال التعبير الفنى. فإذا كان العربي القديم يلجأ الى رسم لوحة شعرية بالكلمات للأنثى الجميلة، فإن اليوناني القديم كان يلجأ الى فن النحت، فينحت تمثالا لـ (فينوس) يضع فيه اجمل وأروع ما رأته عيناه أو خطر بخياله من صفات الحسنوات.

تؤكد أحدث الدراسات على أن العامل الجسدي الشكلي هو أكثر العوامل تأثيرا في انجذاب الاطفال والفتيات بعضهم الى بعض فمن كان شكله جذابا منهم ذكرا أو أنثى يحظى بقبول اكبر وحب أعظم. فقد جاء في دراسة قام بها وجنز Wiggins سنة 1968 م ودراسة اخرى قامت بها سالى بك Sally Beck في جامعة بتلر بأمرىكية سنة: 1979 أن الفروق الفردية بين الرجال في ا خيارهم للإناث تعكس خصائص شخصية الذكر وخلفيته الاجتماعية والثقافية والحضارية، وهذا يتضح كالاتي: إن الرجال الذين يختارون الانثى البدينة هم عادة غير مستقرين عاطفيا، واهتماماتهم قليلة بالتحصيل الاكاديمي والامور الجمالية .



هوامش الدراسة

- (1) الهركولة من النساء: العظيمة الوركين واللفاء: التي ضاق ملتقى فخديها لكثرة لحمها .
- (2) الممكورة: ذات الساق الغليظة المستديرة الحسنة.
- (3) الجيداء: التي طال عنقها وحسن .
- (4) الطرف: العين . ويقال: طرف فاتر: فيه ضعفت مستحسن.
- (5) الردف: العجز ومؤخر كل شيء .
- (6) أسل (أسل): اسالة: ملس واستوى فهو اسيل. ويقال خد اسيل، وكف اسيلة الاصابع .
- (7) كعبت (الفتاة-كعوبا: مهد ثديها، أي برز وارتفع، فهو كعاب وكاعب.
- (8) الرдах الوركين: أي ضخمة تردف سميئة الاوراك .
- (9) الرخيمة الكلام: التي لان كلامها ورق ولطف.
- (10) الحممة: بوزن رصية: ما أحرق من خشب ونحوه. والجمع بحذف الهاء ويقصد كأمها سودا بفحم .
- (11) الوجنة ما أرتفع من الخدين
- (12) الارجوان: شجر من الفصيلة القرنية له زهر شديد الحمرة حسن المنظر وليست له رائحة .
- (13) الجمان: الفضة .
- (14) القباطيء جمع قبطية ثياب من كتان بيض رقاق كانت تنسج بمصر المدرجة والملفوف في الملامسة .
- (15) عكنت: الجارية: صارت ذات عكن، وتعكن البطن: صار ذا عكن والعكنة: ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا.
- (16) البسرة: واحدة البسر، وهو الغض من كل شيء .
- (17) المدهن: آلة الدهن وقارورته.
- (18) الجدول: النهر الصغير .
- (19) الكفل: الردف أي مؤخرة المرأة وعجيزتها .

- (20) الدعص: الكثيب والمجتمع من الرمل المستدير .
(21) نضيد: الجمان اللؤلؤ المنظوم الفضة المنضدية التي يكون بعضها فوق بعض .
(22) حدلتا: مملؤتان .
(23) وشيئا: حليتا وزينتتا.
(24) الزرد: الدرع .

مراجع الدراسة

- 1- عبداللطيف شرارة: "فلسفة الحب عند العرب"، مكتبة الحياة، بيروت، 1960 .
2- جلال السناد: "دراسة سوسولوجية للأمثال الشعبية في دير الزور" أطروحة ماجستير، كلية الآداب جامعة دمشق، دمشق، 1988 .
3- بوعلى ياسين: "أزمة المرأة في المجتمع الذكوري العربي"، دار الحوار، اللاذقية، 1992 .
4- نزار قباني: "عن الشعر والحب"، بيروت، دار العلم للملايين بيروت، 1976 .
5- محمد عثمان الخشت: "المرأة المثالية في أعين الرجال"، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1988 .
6- عبدالله بو حديبة: "الاسلام والجنس"، تعريب هالة العورى، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1987 .
7- سلوى خماش: "المرأة العربية والمجتمع التقليدي"، دار الحقيقة بيروت، 1981 .
8- أوسفلد شفارتس: "علم النفس الجنسى"، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1972 .
9- نور الدين العتر: "ماذا عن المرأة"، دار الفكر، دمشق 1979 .
10- خليل احمد خليل: "المرأة العربية وقضايا التغيير: بحث اجتماعي في تاريخ القهر النسائي"، دار الطليعه، بيروت، 1985 .
11- صلاح الدين المنجد: "امثال المرأة عند العرب: ما قالته المرأة العربية وما قيل فيها"، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان 1981 .